

العباسى

للمؤلف محمد أحمد برانى

المدرس بالإبراهيمية

خف على قلب الرشيد، فكان يتملح معه ويناديه ، يا عباسى ، وكان من حقه عند ما يريد أن يتظرف له أن يناديه يا أبا العباس ؛ لأن له ابنا يسمى العباس ، ولكنه بالغ فى استملاحه فهو العباسى ، مقبلا ومدبرا ، وهو العباسى غائبا وحاضرا . أما اذا جد الجد ، فهو الفضل بن الربيع الذى ينحدر نسبه من أحد موالى عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والربيع أبوه ابن أمة علقها أبوه ، فأنتجته ، فاستعبد واشتراه زياد بن عبد الله الحارثى ، وقدمه هدية إلى خاله أبى العباس السفاح فخدمه ، وحظى عنده ، ثم خدم أبا جعفر المنصور من بعده فخص به ، وظل أثيرا عنده حتى قلده العرض عليه ، واستوزه وقلد الفضل ابنه الحجابة .

وكان الربيع يحاول أن يجعل لابنه منزلة عند الخليفة المنصور ، ويجعله خفيفا على قلبه ، حبيبا إلى نفسه ، قريبا فى مجلسه ، مستشارا فى أمور دولته ، ولعل ذلك كان أعظم ما يتمناه ، إذ لا شئ عند الإنسان يعدل أن يرى ابنه قريبا من صاحب السلطان ، متمتعا بثقته ، آمرا بما يؤمر به ، ناهيا عما ينهى عنه يتصرف فى شئون دولة ، ويرعى عهد أمة ، وكل من حوله سميع مطيع ؛ ولذلك

تراه لما استوزره المنصور ترك أن يسأله حاجه تخفيفا ، وكان ذلك على غير عادة منه ، فقال له المنصور يوما : قد انقبضت عن مسألتى حوائجك حتى أوحشتنى ، فقال : ما تركت ذاك ، أنى وجدت لها موصعا غير أمير المؤمنين ولكنى ملت إلى التخفيف ، فأمره المنصور أن يعرض عليه ما يحب من حوائجه قال الربيع : حاجتى يا أمير المؤمنين أن تحب الفضل ابنى . قال المنصور : ويحك ! إن المحبة لا تقع ابتداء ، وإنما تقع بأسباب ، فقال : قد أوجدك الله السبيل إليها . قال : وما ذاك ؟ قال : تنعم عليه ، فإذا أنعمت عليه أحبك ، فإذا أحبك أحبته ، قال المنصور : — فقد والله حببته إلى قبل أن يقع من من هذا شيء . ولكن كيف اخترت له المحبة من بين سائر الأشياء ؟ فأجابه الربيع : لأنك إذا أحبته كبر عندك صغير إحسانه ، وصغر عندك كبير إساءته وكانت حاجته عندك مقضية ، وذنبه عندك مغفورة .

هذا هو الربيع يقرب ابنه من أمير المؤمنين ، ويلتقى فى قلبه محبته ، ويطلب ذلك من الخليفة بعد أن أوحشته بالإعراض عن السؤال ، والإلقباض عن مساءلته شيئا ، حتى يقع ما يطلبه من نفس أمير المؤمنين فى المحل الذى يريد . ويظهر أن الذين يتصلون بصاحب السلطان تحيط بهم أزهار وأشواك ، ويكثر حولهم الساعون بهم ؛ لأن المنافسة فى مثل هذه المواطن يغلب أن تكون السعاية وليدتها ، ولذلك لا يصلح كل إنسان لها ، وإنما يصلح لها كل جبار داهية ، عركته الأيام ، فإن شرب من حلوها كأسا تجرع من مرها كئوسا ، لا يطغيه السلطان ولا تبطره النعمة ، ولا تمر أمامه الحوادث كما تمر أمام كل الناس . يجب أن تكون كل جوارحه غيرنا ، وكل جوارحه آذانا ؛ يعرف معنى الهمسة واللغة والغمرة ، ويقدر لكل ماحوله نتائج يبتغيها أو يتقيها ، ويكون أحذق من حوله ، غير جاهل فى صناعته ولا متهم فى دينه وليس ذا هوى فى رأيه ، حتى تكتب له السلامة .

وقد أراد الربيع أن ينشئ ابنه تنشئة سياسية تنفعه في قصور الملوك ، فأراد أن يحفر بئرا لأبي عبيد الله معاوية بن عبيد الله بن يسار ، وزير المهدي ، فسعى عليه وحمل المهدي على مكارهه ، مع أنه كان مختصا به من أيام المنصور . وكان ابنه الفضل يصاحبه في الزورة التي كانت سببا في غضبه من أبي عبيد الله ولأمه على أن مر به ، وطرق بابه قبل أن يطرق باب الخليفة فحجبه ثم أذن له ولم يقم إليه ، فأقبل الربيع على الفضل وقال له : أنت أحق يا بني . قال : وما حقى ؟ قال : تقول لي ؛ كان ينبغي ألا تجيء ، وإذا جئت وحجبتك ألا تقيم منتظرا ، ولما دخلت فلم يقم إليك ، أن ترجع فلا تكلمه !! لم يكن الصواب غير ما فعلته كله ، ولكن والله الذي لا إله إلا هو لا أخلق جاهي ولا نفقن مالي ، حتى أبلغ مكروه أبي عبيد الله . ثم كان من الربيع ما بلغ به ما أراد مع أبي عبيد الله ، فأحفظ عليه المهدي حتى أقصاه عن وزارته ، وكل ذلك كان على مرأى ومسمع من الفضل الذي تعلم السياسية على أبيه وتخرج فيها على يديه اتصل الفضل بن الربيع بالرشيد ، وكان صاحبه ، وكاتم سره ، وموضع ثقته ؛ يستشير به فيشير عليه بما يوافق هواه ، ويرضى عنه . ويأتمنه على ما لم يأتمن عليه غيره ، ولقد كانت له يد في نكبة البرامكة ؛ لأنه سعى عليهم عند الرشيد ، وحمله على مكارههم . كما سعى أبوه من قبل على أبي عبيد الله عند المهدي ، وحمله على مكارهه . ولقد قالوا : إذا أراد الله عز وجل هلاك قوم وزوال نعمتهم — جعل لذلك أسبابا . فمن أسباب زوال أمر البرامكة تقصيرهم بالفضل بن الربيع .

وسبب سعاية الفضل على البرامكة يذكره الجهمشيارى في كتابه «الوزراء والكتاب» - في ص ٢٠٠ :

«وما حكى من سبب سعى الفضل بن الربيع على البرامكة — ما حكاه محمد

ابن داود بن الجراح في كتابه المسمى « كتاب الوزراء » عن محمد بن إبراهيم مولى خديجة بنت الرشيد عن أبيه ، وذكر أنه حضر ذلك . قال : نادى الفضل ابن الربيع الرشيد ، وخص به ، فقال لجعفر : قلد الفضل بريد ناحية بأخذر زقها ، ويستعين به على خدمتي ؛ فقال له جعفر بسلاسة خلقه ؛ اختر . فقال : الموصل وديار ربيعة ؛ فأمر أن تكتب كتبه عليها ، وراح بها إلى أبيه ، فلما عرضها عليه ، وعرفه حال الفضل وخصوصيته — غضب يحيى وقال : هذه ناحية إلى أخيك ، وقد صرفناه عن أرمينية ، وتصرفه عن هذه ؟ وكان ولي خراج أرمينية وحربها ، وصرف عنها !! فقال : ما كنت لأفعل . فقال : فالمرسل . فقال : لا والله ، فكره جعفر إغضاب أبيه ودافع الفضل ، وقرب عليه المواعيد ، وكان البرامكة قد فارقوا الرشيد على شيء يطلقونه له من المال للحوادث سوى نفقاته وما يحتاج إليه هو وعياله . فعزم على الفصد ، فقال لجعفر : يا أخى — أنا على الفصد وأريد التشاغل بالنساء ، فكم تبعث إلى لما أهبه لهن ؟ قال : ما شاء أمير المؤمنين ، قال : عشرة آلاف درهم ، قال : وأين المال ؟ ولكن خمسة آلاف درهم . قال : فباتها ، فبعث بها إليه ، ثم قال لجلسائه ، وقد افتصد : أى شيء تهدون إلى ؟ ، فقال كل واحد منهم : قد أعددت كذا وكذا ، واحتال الفضل بن الربيع في التخلص إلى منزله ، فرهن حقه من قطيعة الربيع ، وهو العشر على مائة ألف درهم عند عون الجوهرى الحرى ، فقال : إني أريد أن أهدىها إلى الخليفة ، فصيرها جددا ضربا ، فى عشرين بدرية ديباج ، مختمة بفضة ، وكان عون يحفظ للربيع يدا . فقال للفضل : أطابت نفسك عن جميع نعمتك فى هدية اليوم ؟ فأعلمه أن له عند الرشيد مواعيد ، فقال له عون : فإن عندى خادمين مسلولين ^(١) روميين أحدهما ناقد ، والآخر وزان . جملى الصورة مراهقين ، وقد وهبتهما لك . وأحضره تابوت آبنوس محلى بالفضة .

فصير البدور فيه مع الموازين والصنجات ، وأقفل بقفل فضة ، وغشاه
بديباج وكسا الغلامين الديباج ، وألبسهما المناطق والمناديل المصرية ، ووجه
بهما وبالتابوت مع من يحمله إلى دار الندماء ، فلما ثنى الرشيد الدم ،
قال : اعرضوا على هداياكم ، فقدمت هدية يحيى وجعفر والفضل بن يحيى من
فاكهة ومشام ، وما أشبه ذلك ، وعرض عيسى بن جعفر وغيره هداياهم . فقال :
للفضل بن الربيع : أين هديتك يا عباسي ؟ وبذلك كان يدعو ، قال : أحضرها
يا أمير المؤمنين ، فقال : تجده قد ابتاع هدية بخمسين درهما ، فقال للفراش :
احملوها ، فحملوا شيئا راع الرشيد لما رآه ، وكشفوا عن التابوت فاستحسنه . ثم
حضر الغلامان ، ففتح أحدهما القفل ، فأخرج الموازين والأوزان ، وأخرج
الآخر البدور ، ففتح بدرة بدرة ، واستوفى وزنها وختمها ؛ ولم يدر الرشيد
ما يستحسن من جلالة الهدية ، واستطير فرحا ، وأمر بحمل المال ، وإدخال
الغلامين إلى دار النساء ليفرقا المال على ما يأمرهما به ، وقال للفضل : ويحك
يا عباسي !! ، من أين لك هذا ؟ ، قال : سيعرفه أمير المؤمنين ، قال : لتقولن .
قال : بعثت حتى من قطيعة الرسول لأسرك لما رأيتك قد فصدت وأنت مغموم .
قال : والله لأسرنك ، وقام فدخل .

وانصرف جعفر يجر رجليه إلى أبيه ، فحدثه الحديث ، فكتب كتب
الفضل على بريد الموصل وديار ربيعة وديار مضر ، وختمها وبعث بها إليه ،
فردّها وقال : لا حاجة بي إليها . ولم يزل يحمل الرشيد عليهم حتى أوقع بهم —
فكان يكره ذكرهم بالخير ، ويكره أن يمدحهم أحد في مجلسه . حتى إن أبا
العتاهية حينما أنشده :

ولى الشباب فما له من حيلة وكسا ذؤابتي المشيب خمارا

أين البرامكة الذين عهدتهم بالأمس أعظم أهلها أخطارا

تغير لونه ، وظهرت الكراهية في وجهه . وما رأى منه بعد ذلك خيرا .

وكذلك كانت نفوس البرامكة من الفضل : حقد وغل وحسد وموجدة ، وكانوا يكرهون أن يلود به أحد من ذوى الرأى والفضل والأدب حتى المغنين ، وكان يسخطهم على الناس أن يروهم فى بيته أو داخلين فيه أو خارجين منه . فلقد لقي الفضل بن يحيى البرمكى إبراهيم الموصلى المغنى خارجا من بيت الفضل بن الربيع ، فكان كانه يترصده ، فلما وقعت عينه عليه ، ناداه : من أين يا أبا إسحاق ؟ أمن عند الفضل بن الربيع ؟ فقال إبراهيم : نعم ، غير متعذر من ذلك ، فقال : خروج من عند الفضل بن الربيع إلى الفضل بن يحيى ! هذان والله أمران لا يجتمعان لك ! ، فأجابه إبراهيم : والله لئن لم يكن فى ما يتسع لكما حتى يكون الوفاء لكما جميعا واحدا ، ما فى خير . والله لا أترك واحدا منكما لصاحبه ، فمن قبلنى على هذا قبلنى ، ومن لم يقبلنى فهو أعلم . فقال له الفضل ابن يحيى : أنت عندى غير متهم ، والأمر كما قلت ، وقد قبلتك على ذلك .

ورد إبراهيم الموصلى على الفضل بن يحيى ، فيه جرأة وفيه قسرة ، وليس فيه رعاية لما للبرامكة من حرمة وموضع عند الخلافة فى ذلك الوقت ، إلا أنه ليس بمعقول أن يغالظ إبراهيم الموصلى الفضل البرمكى ويخاشنه ، إلا إذا كان يعلم حق العلم أن لابن الربيع منزلة وكرامة فى نفس الخليفة تساوى — أو على الأقل تدانى — منزلة البرامكة ؛ فهو يستطيع أن يحميه منهم ، ويدفع عنه أذاهم إن نقموا منه صلته به ووجدوا فى أنفسهم منه ؛ وإن فى ملاينة البرمكى له آخر الأمر وتركه على حاله فى الاتصال بابن الربيع دليلا على مكانهما جميعا فى نفوس البرامكة ، ولو أن ابن الربيع كان عندهم مقتحما مبدوا ، لا يرجى ولا يخشى — لحالوا بينه وبين إبراهيم مهما كلفهم ذلك .

فالبرامكة لم يحسنوا أن يصطنعوا الفضل بن الربيع ؛ فإنهم كانوا على عظمتهم يخشونه ويتقونه ، ولكن إلى حد لا يجعلهم ينتقضون على أنفسهم ، أو يحدون

من سلطانهم . فهو مثلاً يصير إلى يحيى بن خالد ، ويسأله حاجة فيتقاعد عليه ، فيها ، فينهرف من عنده مغضبا ويقول :

عسى وغمى يثنى الزمان عنانه . بهتريف حال والزمان عشور .
فتقضى لبانات وتشقى حسائك . ويحدث من بعد الأمور أمور .
فلما سمعه يحيى امتقع وتأثر وقال : نعم يحدث الله من بعد الأمور أموراً ،
ثم يقسم على أبي العباس ليرجعن ؛ ويتحمل هذه المسألة في ماله ، ثم لا يبيت
أبو العباس حتى يرضى .

هكذا كان يحيى بن خالد في مسأله إياه ، وما كان كذلك في توليته بريد
الموصل وديار ربيعة كما أمر سيدهم جميعاً وخليفتهم هرون الرشيد . يحيى بن
خالد يخشى أن يماطل الفضل بن الربيع في وجهه ، ولكنه يجرؤ أن يخالف
الخلافة ، ويدافع الفضل ، ويقرب عليهم المراجعين ، وليس لذلك سبب أكثر
من أن يريد الموصل وديار ربيعة في يد ابنه جعفر ، فكره أن يخرج ذلك من
يد ابنه إلى يد الفضل بن الربيع وإن كان في ذلك مخالفة أمير المؤمنين .

ويظهر أن الفضل كان يحقد عليهم في نفسه ، ولكنه كان ينتظر الفرصة
المواتية التي يستطيع أن يتمكن بها من قلب الرشيد ، حتى إذا أمكنته الظروف
من استيلائه على قلبه ، ثم من سوء تصرف البرامكة وطغيانهم ، وتناسيهم
جلال الخلافة وجلال السلطان - استطاع أن يفعل مثل ما فعل أبوه الربيع
من قبل مع أبي عبيد الله زمن المهدي ؛ فمكن الله له بفضل سعايته ، كما مكن
لأبيه بفضل سعايته وشديد تأثيره وقدرته على اللف والدوران في الكلام ،
ومعرفة الأمور التي يجب أن تتبع في مخاطبة الملوك .

ولقد بلغ من الدهاء ما جعله ينظر إلى هوى الخلافة أين يكون ، فيضع
نفسه حيث يكون ذلك الهوى ، وحيث يقع من نفس صاحبه موقعا جميلا
يجعله مقدما على غيره ، أثرا عنده ؛ ولو كان ذلك الهوى فيمن يرجع بلحن ،

أو يطرب بنغم . حكى صاحب الأغاني في الجزء السادس أنه لما مات المهدي وملك موسى الهادي ، أعطى الفضل بن الربيع بريده دنانير ، وقال : الحق بمكة ، فأتى بابن جامع ، واحمله في قبة ، ولا تعلمن بذلك أحداً ففعل البريد ذلك ، ثم ذكره موسى الهادي ذات ليلة ، فقال لجلسائه : أما فيكم أحد يرسل إلى ابن جامع ، وقد علمتم موقعه مني ؟ فقال له الفضل بن الربيع : هو والله عندي يا أمير المؤمنين ، وقد فعلت الذي أردت ، وبعثت إليه فاتى به في الليل ، فأعجب الهادي بالفضل ، وولاه حجابته بعد أن أعطاه جائزة سنوية . وجرى يوماً حديث بينه وبين الرشيد ، فقال له الرشيد : كذبت ! ، فلم يغضب ولم يتغير ، ولكنه أظهر لباقة وحسن تصرفه في فنون الحديث ، وقال للرشيد : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك ، فنفى عن نفسه صفة الكذب في لباقة بعبارة ضمنها مدح الخليفة بخير ما يمدح به الخلفاء .

ظل كل من البرمكيين والفضل بن الربيع يجد في نفسه على الآخر مودة عظيمة انتهت بغدر الرشيد بالبرامية ، وظل من بقي منهم حياً في ذل السجن حتى عفى عنه بعد الرشيد .

وليس يدفع عن الرشيد مذمة السعاية ، أنه بعد نكبتهم حزن عليهم ، وندم على ما فرط منه في حقهم ، وأطراهم وقرظهم ووصفهم وقال : كنا نعيب عليهم ، وقد صرنا نتمنأهم ونبكي عليهم ، وكان يتمثل بقول حنظلة بن عرادة :

عتبت على سلم فلما فقدته وجربت أقواما بكيت على سلم
وبعد أن نكب الرشيد البرامية لازمه الفضل بن الربيع ، وتولى الوزارة وغطى ميل الرشيد إلى الفضل على قلبه حتى أصبح لا يسمع عتب عاتب ؛ ولا لوم لائم ، وبلغ به ذلك أنه سأل يوماً أحد خاصته : بأي شيء يتحدث الناس ؟ فقال : يتحدثون بأنك تقبض على البرامية ، وتولى الفضل بن الربيع الوزارة !

فغضب وصاح به، وما أنت وذاك؟، ويلك!!، فأمسك صاحبه ولم يزد شيئاً.

وكان الفضل يحضر مجالس أنس الرشيد وطربه، ويصف له الجوارى بالحسن والإحسان والظرف والأدب، فيسأله أن تسخو نفسه بهن، وأن تكون له سلوة عنهن، فيسخر بهن، ويتمنى لو سخا بنفسه التي يفدى بها أمير المؤمنين فيغلب الجوارى أمير المؤمنين على قلبه. ومثل تلك الأمور لا تمر من غير أن تترك في النفس أثراً حميداً تحمله الخلافة لصاحبها، وتقربه إليها، وتزيد مرتبته عندها؛ وبخاصة إذا كانت تأتي من ناحية حبيبة إلى من فرغ باله وترف عيشه ولقد كانوا يستشفعون به عند الرشيد لعلو مرتبته وعظيم محله عنده ومن استشفع لهم أبو العتاهية، فإنه حينما وجد عليه الرشيد كتب إلى الفضل يستبطل شفاعته.

أجفوتى فيمن جفاني وجعلت شأنك غير شاني؟
ولطالما أمنتى مما أرى كل الأمانى
حتى إذا انقلب الزمان ن على صرت مع الزمان
فكلم الفضل فيه الرشيد، فرضى عنه.

وكان هو المدير لأمره، والمختص به، وقاضى حاجات منه، ورفيقه في الحج، وعضده في الغزو، وظل في المحل الأول عنده، والمقدم على من سواه حتى إنه عندما أراد أن يبني بيتاً له في بغداد وهب له خمسة وثلاثين ألف درهم معونة له على بنائه، حتى إذا خرج إلى طوس اعتل بها، ثم ألحت عليه العلة حتى تحدث الناس بشأنها، فلما علم بذلك الأمين « وهو يعلم مكان الفضل من الخلافة » أرسل إليه كتباً يطلب إليه القبول إلى بغداد، والاحتياط على مافي العسكر إن حدثت بالرشيد حادثة، فلما علم الرشيد بأمر هذه الكتب، طلب إلى الفضل بن الربيع أن يأمر حاملها وهو بكر بن المعتمر بإحضارها إليه،

فأنكرها بكر ، فطلب الرشيد من الفضل أن يحتال عليه لأخذها منه ، وتسليمها إليه ، ولكن بكرا ينكر ويستمر في إنكاره ، والفضل يتوعد ويتهدد ، ويعلم بكرا أنه إن لم يقدم الكتب بلغ منه غاية المكروه ، فأقام بكر على الجحود والإنكار مع أنهم قنبوه من قرنه إلى قدمه ، فأيقن بالموت ويأس من نفسه ، وتوقع خروجها ، وكاد يعمل على الإقرار ، ولكنه لا يئأس من الفرج وبيننا هو في أسوأ حال إذ به يسمع ناعيه ، وإذا بالفضل بن الربيع يقبل عليه ينعى إليه أمير المؤمنين ، فيعلم أن الله أنجاه ، وأنه قد بدأ حياة جديدة فاطمأن على نفسه ، وأخرج الكتب من حيث هي ، وسلم كتب الفضل إليه .

إذن خرج الرشيد من الدنيا . وآل أمر الخلافة إلى ابنه الأمين ، وتوشك أن تشب نار الخلافة بين الأمين والمأمون ؛ فإلى أيهما ينحاز الفضل بن الربيع؟ إنه ينحاز إلى محمد الأمين ، لأنه ولي العهد ، ولأن له فيه ثقة ، ولأنه يستطيع أن يؤثر فيه ، ولأنه ليس معه من هو مثل الفضل بن سهل ، فينازعه السلطان والتسلط على الخليفة . إذن انضم الفضل بن الربيع إلى الأمين ، وخرج الأمين به وكتب إلى أخيه المأمون كتابا جاء فيه : واضمم إلى الميمون بن الميمون الفضل بن الربيع ولد أمير المؤمنين - رحمه الله - وحرمة وأهله ، وأمره بالمسير معهم فيمن معه من رابطة وجنده . ويقول فيه أيضا مخاطبا المأمون : وإياك أيضا أن تفذ رأيا ، أو تبرم أمرا ، إلا برأى شيخك ، وثقة آبائك : الفضل ابن الربيع ، وأقر الخدم على ما في أيديهم من الأموال والخزائن والسلاح ، ولا تخرجن أحدا منهم عن ضمن مايلي إلى أن تقدم على به ، وإن أمرت لأهل عسكري بعتاء أو رزق ، فليكن الفضل بن الربيع المتولى لإعطائهم على دفاتر يتخذها لنفسه بمحضر من أصحاب الدواوين ، فإن الفضل بن الربيع لم يزل يتقلد مثل ذلك عند مهمات الأمور .

فالفضل بن الربيع هو الميمون بن الميمون ، وهو الأمين على حرم الرشيد

وولده وأهله ، وهو ثقة الرشيد والمهدي — فلا عجب أن يكون ثقة الأئمين أيضا ، وإذا كان ثقة الأئمين ، فإن المأمون لا يتصرف إلا بإذن منه ، وبعد إجازته . ولذلك لم يكن غريبا أن يجد الفضل بن الربيع في المسير إلى بغداد من غير أن يعرج على المأمون ، أو يلتفت إليه ، ولم يقبل من رسوله الذي أرسله في أثره ، ولم يلتفت إليه أيضا . لذلك كان طبيعيا أن يحقد عليه المأمون ، وأن يحقد هو على المأمون بعد ذلك ، لأنه أصبح لا يأمنه على نفسه ، فهو لهذا يغري الأئمين بخلع المأمون ، وبالإيضاء لابنه ، إذ قد تحدث للأئمين حادثة تذهب بحياته . فيقع هو في نار المأمون يصطليها حرى مبيدة . فهو بعد أن ورد عليه من بغداد ، وتولى العرض عليه أغراه بالمأمون ، وحمله على أن يكتب إليه يسأله التجافي له عن بعض الأعمال بخراسان ، ويخبره أنه سيرسل إليه رجلا يتقلد البريد من قبله ليكاتبه بأخباره ؛ ثم زاد أن حرمه مالا كان أبوه الرشيد أوصى له به ، وما منع من كان ببغداد من حرمه وولده . وبسبب هذه التصرفات التي عامل بها الأئمين أخاه المأمون أو التي عامل بها الفضل بن الربيع ولي عهد الخلافة — استوحش المأمون ، واستحسنت وحشته ، وعلم مذهب أخيه فيه ، وأخذ في أهبة التحرز منه .

استوثق الأمر لمحمد الأئمين ، فأخذ الفضل بن الربيع يزين له خلع المأمون ، فلما أجمع على ذلك بتأثير الفضل له ، لم يسمع النصيحة من مناصحيه ، واعتقد أن الرشيد أخطأ في جعل ولاية العهد للمأمون ثم القاسم من بعده ؛ وكل من حاول صرفه عن هذا الأمر أو تأجيله ، وتذكيره بوعده أبيه — نهره . واستعظم المخلصون للخلافة أن يقع من الأئمين ذلك ، مع ما وكده من البيعة ، وتوثق في عهده عند خاصته وعامته .

وكان الأئمين يرى أن ذلك كان فلتة من فلتات الرشيد ، وخطأ من رأيه شبه عليه فيه جعفر بن يحيى بسبحه ، فغرس لهم غرس مكروه لا بد من قطعه

والذى يرى غير ذلك رأى ، هو فى اعتقاده رجل مهذار ليس بذى رأى مصيب ؛ ولكن رأى إلى الشيخ الموفق ، والوزير الناصح : الفضل بن الربيع . إذن لابد من خلع المأمون وأخيه ، ولابد من البيعة للناطق بالحق ابن الأمين ولذلك كتب الفضل بن الربيع بذلك إلى العمال ، وينهى عن الدعاء لهما على المنابر ، ويرسل من يسرق الكتب اللذين كان الرشيد علمهما فى بيت الله الحرام بالبيعة ، ويمزقهما ، فيستوحش الناس من الأمين ومستشاره الفضل ، ويغضب المأمون ، ثم تقوم بينهما حرب يقتل فيها قواد الأمين ، وتضطرب الأمور فى يد الفضل بن الربيع ، فيحاول أن يلقى التبعة ، على الأمين نفسه ، ويحدث نفسه يوما فى صحن داره ، ويقول عن الأمين : ينام نوم الظربان ، وينتبه انتباه الذئب ، همه بطنه ، لا يذكر زوال نعمة ، ولا يروى فى إمضاء رأى ؛ قد شغله كأسه ولهوه عن مصلحته ، والأيام توضع فى هلاكه . ثم باتى ببعض خلصائه ، ويستنجد بهم ، ويقول لهم : إنما نحن شعب من أصل إن قوى قوينا وإن ضعف ضعفنا ، وإن هذا الرجل (يعنى الأمين) قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء ، يشاور النساء ، ويخلد إلى الرؤيا ، وهو يتوقع الظفر ، ويتمنى عقب الأيام ، والحتف أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل ، وقد خشيت والله أن نهلك لهلاكه ، ونعطب لعطبه . ثم يغرى أسد بن يزيد بن مزيد بالمأمون ، ويرجوه أن يقود له الجيوش بعد قتل على بن عيسى ، ويفزع إليه فى لقاء طاهر ابن الحسين ؛ لأنه صادق الطاعة ، فاضل النصيحة ، ميمون النقيبة ، شديد البأس ؛ ولكن أسدا يشتط عاياه ، فيما يلتمسه من الأموال والعتاد والرجال والسلاح ، فيغضب الفضل ويصير به إلى محمد الأمين ، ثم يحبسه .

إذن يتذكر الفضل للأمين ، ويتحدث بما فيه من عيوب شخصية وخلقية ، ويسرف فى ذلك ، وهو يعلم أن ذلك ليس من الحنكة السياسية ، ولكن صدر المرء إذا ضاق بصاحبه جرى ذكر عوراتيه على لسانه من غير أن يقصد إلى

ذلك ، إلا أن الفضل يعرف أن فشل سياسة الأمين فشل سياسته ، وأن نصرة المأمون خذلان له ، وعاقبتها وبال عليه ؛ ولذلك تراه يحاول أن يصد جيوش المأمون عن بغداد ، ويحاول أن يجمع الناس حول الأمين ؛ وإذا شئت تعبيراً أدق وأصرح ، قلنا يحاول أن يجمع الناس حوله ؛ لأن الأمور كلها أصبحت مزومة في يديه ، وكان يجرؤ أن ينكر على خليفته ما يراه فيه من خروج عن الحد الذي تقف عنده هيبة الخلافة ، وتبتذل إذا تخطته — حكوا أنه عزم يوماً على الاصطباح وأحضر ندماءه والمغنين ، وصفت الموائد ، فلما ابتدأ ليأكل دخل عليه إسماعيل بن صبيح فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا هو اليوم الذي وعدتني فيه أن تنظر في أعمال الخراج والضيايع . وجماعات العمال ، وقد اجتمعت على أعمال مندسنة لم تنظر في شيء منها ، ولم تأمر فيها ، وفي هذا دخول خلل في الأعمال . فقال له : إن اصطباحي لا يحول بيني وبين النظر ، وفي مجلسي من لا أنقبض عنه من عمي وبن عمي وإخوتي ، وهم أهل هذه النعمة التي يجب أن تحاط ، فأحضر ما تريد عرضه فاعرضه علي وأنا آكل ؛ لا أقدم إليك فيه بما تحتاج إليه إلى أن يرفع الطعام ثم أتم النظر فيما يبقى ، ولا أسمع سماعاً أو أبرم الباقي وأفرغ منه . وإذا كان يحضر كتاب الدواوين بأكثر ما في دواوينهم ويقبل إسماعيل يقرأ عليهم والأمين يأمر وينهى بأحسن نهى وأشدّه ، وكان يشاور من حوله في الشيء بعد الشيء ، حتى إذا انتهى من طعامه دعا بنبيذ فشرب ثم شرب ، وكان الفضل بن الربيع حاضراً فليحق الأمين وشق ثوبه بين يديه ، ورفع صوته يقول : الله ، الله أعدل من أن يرضى أن يكون مدبر أمور أمة نبيه محمد ﷺ من هذه أفعاله . فضحك الأمين ولم ينكر على الفضل ما قال « الوزراء والكتاب ص ٤٥ »

هذه القصة وأشباهاها مما يدل على مجون واستخفاف ، يرويها المؤرخون ، ولا ينكرونها أو يثبتونها بتحقيق أو تدقيق ، ونحن وإن كنا نقرؤها فيما نقرأ

من كتب التاريخ والأدب ، فإنه يعز علينا أن ننسب مثلها إلى خلفاء المسلمين في تلك العصور المتقدمة والإسلام مازال في عنفوانه .

مثل تلك الأقاصيص التي نعتقد أنها موضوعة أو مبالغ فيها حبكها الكسريون ، أو الذين ينتسبون إلى أحزاب هواها في غير الأمين : من المأمونين أو الطالبيين أو غيرهم ، إلا أنها مع ذلك تدل على ما كان للفضل من جرأة على الأمين في مخاطبته . ولعل الكثيرين يعرفون قصة ملاعبة الأمين والفضل بالترد التي قر فيها الأمين الفضل وأخذ منه خاتمه ، فإن قصة الخاتم انتهت بغضب الفضل الذي لم يتمالك نفسه وقال : إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . هذا خاتم وزيرك ، يختم به على جميع الآفاق . إلى أن قال : والله ما بغيت من هتك نفسك عند أوليائك ، والمنافقين لك والمطرحين ببغضك شيئاً ، إلا وقد أنبتة ، وما يضر ذلك الفضل ولا الربيع ، والله المستعان . فالفضل يغضب ويحتد على خليفته ويكلمه كلاماً شديداً . والأمين لا يزيد على أن ينظر إليه ، ويضحك له !!

وكان الفضل على عادة غيره من وزراء الأعاجم ، مبسوط اليد كثير النوال مقرباً للشعراء ، يملأ جيوبهم بالبدر ، فتنتلق ألسنتهم بالمدح ؛ ومن مدحوه أبو نواس وأبو العتاهية وغيرهما . ومن قول أبي نواس فيه :

أنت يا بن الربيع علمتني الخير وعودتني والخير عادة
وقوله :

مأمن يد في الناس واحدة كيد أبو العباس مولاها
نام الكرام على مضاجعهم وسرى إلى نفسي فأحياها
ومن مدحه إسحق بن إبراهيم ، قال :

مد لك الله الحياة مداً حتى يكون ابنك هذا جداً

مؤزراً بمجده مردى ثم يفدى مثلاً تفدى

أشبه منك سنة وخدا وشياً مرضية ومجداً (١)

كأنه أنت إذا تبدى شمائل محمودة وقد

وغنى له إسحق بن إبراهيم الموصلى ، وعلوية ومخارق .

وحدث حبيب بن الجهن النجدى أنه حضر الفضل بن الربيع متنجراً

جائزته. فرأى عوناً حاجب الفضل يخبر أن أبا العتاهية بالباب، فلم يأذن له خشية

أن يمنعه من الركوب وكان قد تهيأ له ، فلما علم أبو العتاهية أن الوزير على الركب

أخرج من كفه نعلين عالياً شراك وأهداها إلى الفضل فقرأ حبيب الكتاب

المكتوب على الشراك فإذا هو :

نعل بعثت بها ليلبسها قدم بها يمشى إلى المجد

لو كان يصلح أن أشركها خدى جعلت شراكها خدى

فأعجب الشعر الفضل وحمله معه إلى الأمين وقرأه عليه ، فوهب لأبي العتاهية

عشرة آلاف درهم .

سأت حال بغداد وانفل الناس عن الأمن ، وساءت مقالتهم فيه ، وفي

وزير الفضل بن الربيع ، وتمزقت الأموال التي كانت في يده ، وتقدمت

جيوش المأمون فلم يطق الفضل صبرا على البقاء في بغداد واختفى سنة ١٩٦ هـ

وكان يظهر في بعض الفتن التي تقوم ضد المأمون ، فإذا أخذت الفتنة أو كادت

عاود اختفائه . وأراد بعض أصدقائه أن يحفظوا عليه داره ، ويرعوا حرمة

أهله وولده فسأ كنوهم في بيته ، وأعانوهم بالمال ، ودفعوا عنهم بقوة السلطان

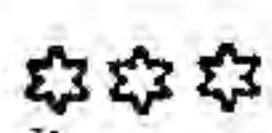
حتى إذا ظهر الفضل ، وأمنه المأمون ، رد عليه داره ، واعتزل هو ومن بقي

من البرامكة ميادين السياسة ، واكتفوا بأن يعيشوا كما يعيش الناس . ومع

(١) السنة : الوجه لصقالته وملاسته ، أو هي الجهة والجينان .

ذلك فإن الأحداث التي نزلت بهم لم تطهر قلوبهم من غل الحقد، ولم تطلقها من أسار الكراهية، فظل كل منهم في مكانه بالنسبة لآخيه، وإن كانت دائرة الكيد والدس قد ضاقت؛ لأنهم أصبحوا لا يتنافسون على حكم ولا يتزلفون لسلطان. وإن المحاورة التي جرت بين علوية وإسحق بن إبراهيم الموصلی في مجلس الفضل بن الربيع، لتعرفك مابق لهم من المنزلة في نفوس الناس بالرغم من بعدهم عن السلطان، ونعيم الحكم أو جحيمه.

حدث صاحب الأغاني في الجزء الخامس ص ٣٠٦ على لسان أحمد بن يحيى المكي، قال: «دعاني الفضل بن الربيع، ودعا علوية ومخارقا، وذلك في أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه، إلا أن حاله كانت ناقصة متضعضة، فلما اجتمعنا عنده كتب إلى إسحق الموصلی يسأله أن يصير إليه، ويعلمه الحال في اجتماعنا عنده» فأبطأ إسحق عليهم، ثم وافاهم ومعه غلامه يحمل قطر ميز نبيذ ليشرّب منه فلما نقد لعلوية غناه عتب عليه علوية تأخره عن مباكرة الفضل، وإحضار شرابه معه ترفعا عن شراب الفضل، ثم قال له: «أما والله لو الفضل بن يحيى أو أخوه جعفر دعاك إلى مثل مادعاك إليه الأمير — بل بعض أتباعهم — لبادرت وباكرت وما تأخرت ولا اعتذرت» اه ص ٣٠٧ من المصدر نفسه. فأنت ترى أن علوية يعتب على إسحق ويعنفه، ويوازن بين طاعته للفضل وطاعته للبرمكيين؛ وهذا يدل على أن كلا منهما كان مازال ينظر إلى الآخر نظر المغيظ المحقق مع أن دولتهم جميعا قد دالت.



فلما انحطت منزلة الفضل في دار المأمون وفي نفوس الناس، كانت تعود إليه ذكرى أيامه الأولى، فكان يتمثل كثيرا بقول أبي العتاهية:

ما الناس إلا للكثير المال أو لمسلط مادام في سلطانه
فإذا الزمان رماه ببلية كان الثقات هناك من أعوانه

ولو أنه أخلص النصيح للأمين، ولم يزين له خلع أخويه من الخلافة،
ولم يعكر ما بينه وبينهما، وترك الأمور تجري في الحدود التي رسمها الرشيد،
ورعى حرمة ولاية العهد، وجرى على رغبة الرعية — لو أنه فعل ذلك كله
لتغير وجه التاريخ الإسلامي في تلك الحقبة من الزمان، ولما كانت نهاية الأمين
تلك النهاية السيئة التي تعد وصمة في جبين التاريخ الإسلامي.

ولكننا نرجع ونقول: العبد يريد، والله يريد. ولا يكون إلا ما يريد

الله.

محمد أحمد براني
بالمدرسة الإبراهيمية